بهاء طاهر في «واحة الغروب»:

الحياة غلطة في عمل نصف حداثي نصف تقليدي وأبطال نصف ثوار نصف خونة!

فتحي أبو رفيعة*

■ قرر بهاء طاهر على لسان اثنين من أبطال روايته الأخيرة «واحة الغروب»(1) أن «الحكاية لا تكتمل بروايتها، وإنما يكملها من يسمعها. وأن الحكاية «ربما تقصد أن ما نراه قد لا يكون هو الحقيقة. قد يخفي سطح الماء الرائق حياة لا نعرفها، وقد تغيب عنا الحقيقة تحت أي سطح.»(ص 196). هذه الرؤية التفسيرية، على بساطتها، تشكل جانبا رئيسيا من فلسفة هوسيرل الظاهراتية التي تعنى، في ما يقول سامي خشبة، بتطوير «مفهوم معين للمعرفة من خلال ممارسة الإنسان للتعرف على ظاهرات العالم؛ فهي معرفة متحررة من الفروض المسبقة، وهي المعرفة التي لا تهتم بالمجتمع، أو بأثر التاريخ والعوامل الذاتية المسبقة على العقل العارف.»(2) وسيحتاج القارئ إلى التسلح بهذه الرؤية التفسيرية لفك رموز هذا العمل الذي آثر فيه بهاء طاهر أن يخرج عن أسلوبه الروائي التقليدي الذي ميز أعماله الروائية السابقة (التي حداه فرط التمسك بها إلى استصدار توصية أو قرار في أحد مؤتمرات أدباء الأقاليم في مصر برفض الحداثة)، أقول إنه آثر في عمله الجديد أن يتخلى عن قناعاته القديمة ضد الحداثة وتجلياتها، وأن يقدم للقارئ عملا مركبا حشد فيه، عامدا متعمدا، كل ما سمح له به موضوع روايته من أفكار ما بعد حداثية، بدءا من الاستعانة بالكولاجات أو التجميعات السردية من سير ذاتية ومعلومات تاريخية، ومرورا بالمزج بين مختلف المواضيع الثقافية التي ميزت وما فتئت تميز عصر ما بعد الحداثة من أفكار نسوية وأنثروبولوجية وأدب ما بعد الاستعمار، وليس انتهاء بإعلان الرفض التام لموروثات الماضي ودعوته على لسان بطله الرئيسي في نهاية الرواية إلى القضاء على «كل قصص الأجداد ليفيق الأحفاد من أوهام العظمة والعزاء الكاذب» على نحو ما تكشف عنه القراءة السريعة التالية لأحداث «واحة الغروب».

تتناول الرواية ما يشبه سيرة ذاتية لبطلها محمود عبد الظاهر (لماذا عبد الظاهر وليس عبد الدايم أو عبد الموجود أو عبد النعيم؟ لم أشأ أن أربط بين اسمه وبين الاتجاه الفلسفي الذي أشرت أعلاه، لكن كل كلمة وكل عبارة وكل مضمون ينطق بقصدية بهاء طاهر لهذه الكلمة وهذه العبارة وهذا المضمون، ولا شك في أن ذلك كان أمرا شاقا ومرهقا بالنسبة للمؤلف على مدى قرابة 300 صفحة، لكنه كان كذلك أيضا بالنسبة إلى القارئ.

زمن «واحة الغروب» هو فترة ما بعد انكسار ثورة عرابي في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر. محمود عبد الظاهر ضابط مصري تم التحقيق معه بتهمة تعاطفه مع الثوار، وفي لحظة ضعف، إيثارا للسلامة والتمسك بلقمة العيش، وخشية المحاكمة العسكرية، ينطق بما يسحب تأييده للثورة. ويتم الإبقاء عليه في عمله، لكن شبح ذلك التحقيق يظل مخيما على حياته الوظيفية، فتتأخر ترقياته، ويتعرض لحالات مستمرة من تأنيب الضمير. ويقبل مضطرا تكليفه بالسفر إلى واحة سيوة كمأمور لها بعد أن قتل أهلها المأمور السابق. يصحب في رحلته إلى الواحة زوجته الإنجليزية كاثرين (التي اختار لها المؤلف أن تكون من أصل أيرلندي لكي يربطها بالبطل كرهمها للاستعمار الإنجليزي). كاثرين هي أيضا باحثة الآثار تسعى إلى إثبات أن قبر الاسكندر الأكبر مدفون تحت المعبد الكبير في الواحة، ويستحوذ هذا الاهتمام على حياتها ونشاطها في الواحة مما يجر عليها وعلى زوجها حنق وغضب أهل الواحة، الذين يكرهون أصلا السلطة التي يمثلها محمود، خاصة وأنه جاء بمهمة محددة وهي إعادة الأمن إلى الواحة وجمع الضرائب من أهلها.

وبينما تشعر كاثرين أنها تسعى إلى تحقيق هدفها واكتشافها لمقبرة الاسكندر، وتجد في ذلك متعة كبيرة تنسيها كل مساوئ الحياة في ذلك العالم البدائي، تضيق نفس محمود بمهمته، وتتكشف أحاسيسه برفض واقعه الملبد بوقائع الخيانات الكبرى والخيانات الصغيرة. وتفتر علاقته بزوجته. ويكتشف أن المسؤولين في «المحروسة» قد دسوا عليه ضابطا صغيرا يزيف عنه التقارير ويسعى إلى الإيقاع بينه وبين أهالي الواحة.

وفي خضم هذه الأحداث تحضر إلى الواحة فيونا، أخت كاثرين، للاستشفاء من مرض صدري، فيقع محمود في حبها دون أن يكشف عن ذلك. ولكن صحة فيونا تتدهور دون حتى أن تعرف بحبه لها. وفي اللحظة التي تسقط فيها فيونا على فراش الموت، يقرر محمود في نفسه أمرا. ويتوجه إلى القسم. هناك يلتقي بغريمه الجديد الذي اكتشف خيانته. ويحاول هذا الغريم أن يبرر له أفعال خيانته والوشاية به، لكن محمود يقول له:

– لا تشرح أي شيء. لا أريد أن أسمع أي شرح. الغلطة في الحياة نفسها.

وفي الطريق إلى المعبد يردد محمود عبارات مماثلة: «لا شيء يصلح في هذه الدنيا الغلط إلا الغلط» و «يجب أن نصفي الحساب بسرعة» و «يجب أن تزول كل أشباح الماضي.»

وينطلق محمود إلى داخل المعبد الذي زرع فيه أصابع الديناميت. وتتفجر أركان المعبد ويرتطم حجر برأس محمود، الذي يحكي آخر لحظات موته: «توهج فجأة نور في داخلي. نعم، الآن يمكن أن أرى كل شيء. أن أفهم كل ما فاتني في الدنيا أن أعرفه. أحاول أن أرفع رأسي فلا أستطيع. يخبو النور وتحل هجمة السبات الثقيل.

بهذه الخاتمة التي تمثل لحظة لفقدان الوعي، أو عودته، تنتهي أحداث «واحة الغروب» على لسان محمود نفسه. البطل يحكي قصة موته. تماما مثلما فعل بهاء طاهر مع بطل روايته «الحب في المنفى» التي تختتم بمشهد مماثل ينتهي بموت بطلها، وإن كان في ظروف مغايرة.

وإذا كان هذا هو أحد الخيوط «الظاهرة» في وقائع «واحة الغروب»، فإنها تخفي تحت السطح خيوطا أخرى كثيرة أرهق بهاء نفسه في نسجها، وأرهق القارئ في تتبعها ومحاولة فك شفراتها.

خط الموت الذي يشكل خطا عميقا ينتظم الرواية منذ بدايتها (موت أبيه وموت أمه، والموت الذي يتهدده بالبقاء في ذلك الجو المعادي من أهالي الواحة)،ذكريات مقبضة تقبع في داخله، يحملها معه إلى الصحراء التي تدرك كاثرين جمالها، بينما لا يرى هو فيها سوى ماض ميت. تلومه كاثرين: «قد لا يكون للصحراء ذنب في هذا. ربما تكون تلك أشياء حملتها أنت معك إليها.» ويقول محمود: «تمنيت الموت من قلبي. فليأت. هو مؤلم، لكنه ليس مخيفا. فليأت بسرعة. أود النهاية كراحة جميلة من عبء لا يحتمل. فليأت.»

خط الخيانة، خيانة الثورة، وخيانة الصديق الذي وشى به بعد أن كانا رفاق سلاح. «أي سلاح كان يمكنني أنا مثلا أن أشهره في وجه الدنيا بعد أن أغمد الجميع السلاح؟ أسأل نفسي طول الوقت عن الخيانة. سألت نفسي كثيرا لماذا خان الباشوات والكبار والذين أحببتها كما لم أحب سواها لكني لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان. هربت نعمة من البيت بعد أن سألته مرة: سيدي محمود هل تحبني؟ زجرتها: ما هذا الكلام الفارغ يا بنت؟ لو عدت إلى هذا الكلام سأرميك في الشارع. ضحكت وهي تقول معك حق يا سيدي. لكنها بعد ذلك خرجت بنفسها إلى الشارع واختفت. هي خيانة أخرى. خيانته لنفسه، وخيانته لحبه.

ثم ذلك الخط التاريخي الهام، الذي لا يمكن لأي قراءة لـ«واحة الغروب» أن تغفله. ذلك الربط، الذي لا وجود له، وإن كان واضحا كل الوضوح، بين ثورة عرابي وثورة يوليو. نفس الخيانات، ونفس الهزيمة. «بقيت خيانة طلعت زميلك وصديقك القديم. عقد صفقة مع المأمور الإيطالي ومع رؤسائه في الإسكندرية. خائن لكنه واضح مع نفسه. كذب علي لكنه لم يكذب على نفسه. كأنّ كل حماسه للثورة أيام الإسكندرية كان مجرد نزوة. وحماسي أنا أيضا وحماس البلد كله – مر كنزوة طيش عابرة أفقنا من رعونتها بالهزيمة.» سيتبين قرب نهاية الرواية أن طلعت (الخائن) أصبح وكيلا لحكمدار الاسكندرية بينما محمود عبد الظاهر منبوذ في واحة سيوة في ما يشبه العقاب أو العزل.

وفي فصل مطول عن الإسكندر نلمح دلائل على التقابل بينه وبين محمود. فهو أيضا لا يذكر فيمن أحب سوى زوجته الفارسية روكسانا، وهو أيضا يتحدث عن الخيانة. يعترف بأنه طاغية حكم الرعية بالخوف فأفرخ الخوف الطاعة كما أردت، لكنه أفرخ معها الخيانة. خانني أقرب الناس إليّ، وتأمروا على المرة بعد المرة. وفي قصة الاسكندر أيضا هناك إشارة إلى صبي خان زميله ووشى به وبقية زملائه وهو يعرف أنه يدفع بهم إلى التعذيب والموت. ويتساءل الراوي على لسان الإسكندر: «فكرت طويلا فلم أعرف أين نقطة البدء في سلسلة الطغيان والخوف والخيانة. أيها يلد الآخر؟ وهل كنت أنا بالفعل صانعها أو واحدا من ضحاياها.»

حكاية مليكة الأرملة الشابة التي تسرد جانبا من التراث الشعبي والأنثروبولوجي لأهل الواحة. فقد قضي عليها بحكم عادات الواحة وتقاليدها أن تلزم بيتها ولا تخرج إلى الناس إلى أن يحين أجلها، وإلا فستحل الكارثة بالواحة وأهلها. تهرب مليكة ذات يوم مستنجدة بكاثرين. وفي لحظة ضعف تتشبث مليكة بكاثرين، وتدفن رأسها في صدرها، وتحس كاثرين بلذة غريبة، وتصرخ: «أنا لست سافو، أنا لست سافو»، وتطرد مليكة التي يحكم عليها بالموت من أهل الواحة.

خيوط متداخلة لا نهائية كالأسئلة التي يطرحها الراوي على لسانه ولسان شخوصه: «لماذا ما زلت حتى الآن أسأل الأسئلة التي عذبتني في شبابي؟ اقتربت النهاية ولم أعرف طمأنينة القلب.»

ومع اقتراب النهاية، يحاول محمود عبد الظاهر أن يضع يده على المشكلة الحقيقية في حياته:"المشكلة هي أنت بالضبط يا حضرة الصاغ! لا ينفع في هذه الدنيا أن تكون نصف طيب ونصف شرير. نصف وطني ونصف خائن. نصف شجاع ونصف جبان.نصف مؤمن. نصف عاشق. دائما في منتصف شيء ما. تحمست فترة للوطن والثوار، وعندما جاءت لحظة الامتحان أنكرتهم ثم توقفت في مكاني. لم اكن أبدا شخصا واحدا كاملا في داخله. طلعت كان أوضح مع نفسه. ما دام قد خان فليكمل الطريق إلى نهايته. باع نفسه وقبض الثمن الذي يريده. أما أنا فبعت بلا ثمن، وبقيت قانعا بالسخط على نفسي وعلى الانجليز وعلى الدنيا كلها دون أن أعرف ماذا أريد. حتى الحب اكتفيت منه دائما بالمتعة ثم وقفت لا أكمل الطريق. تركت نعمة التي أحببتها لتضيع مني."

ويبقى تساؤل هام. لماذا قرر محمود أن يموت؟ يروي بهاء طاهر على لسان كاثرين أن الغرب أو الأفق الغربي عند المصريين هو مملكة أوزوريس، مملكة الموتى وأرض الحساب التي اعتقد المصريون أنها في مكان ما في الصحراء الغربية. وبما أن سيوة هي أقصى الغرب من مصر فلعلهم اعتبروها أيضا آخر محطة تغرب فيها الشمس عن الدنيا. وبالتالي، فالأفق الغربي هو عالم الخلود. فهل كان هذا هو ما سعى إليه محمود عبد الظاهر؟ سؤال آخر يضاف إلى سلسلة الأسئلة اللانهائية التي طرحها بهاء طاهر.

مقتطف من «واحة الغروب»

«السرادق واسع وأنا واقف أتقبل العزاء في محمود عبد الظاهر لكن كل المقاعد خالية ولا أحد يأتي. يجلس شيخ قارئ على دكة عالية لكنه يفتح فمه ويغلقه دون صوت ولا أحد يأتي. ثم السرادق حديقة واسعة مزدحمة بالناس يلعب فيها كثير من الأطفال وأنا أسير وحدي أحمل طيات من قماش أبيض، أستوقف رجلا عجوزا وأسأله عن مكان المقابر فيشير بيده دون أن يتوقف ويقول استمر فأتبع إشارته وأجدني على شاطئ نهر تحف به أشجار لبلاب تتدلى غصونها في الماء وأنا أمسك بيدي فتاة جميلة ونضحك معا، وأقول لها تصوري كنت ميتا لكني عشت من جديد فتقول بفخر هذا بفضلي أنا، ونركب قاربا في النهر وأكتشف أنها نعمة فأضحك وأسألها منذ متى غيرت لون شعرك؟ وترد منذ تركتني.

لكنها تصرخ فجأة وتشير بيدها خلفي ويظهر ناس كثيرون عل شاطئ النهر يشيرون بأيديهم إلى حيث تشير، وألتفت فأجد تمساحا هائلا فاغرا الفم يهجم على القارب. أمسك بيد نعمة ونقفز معا من القارب، نجري بسرعة فوق الماء فنكون مرة أخرى في السرادق وسط المقاعد الخالية وصوت القارئ لا يخرج لكنه يفتح فمه ويغلقه.

تقول نعمة في سخط لماذا لا يقرأ هذا الشيخ على الأقل؟ أتقدم منه غاضبا فأكتشف أنه لا يقرأ لكنه يضحك. عرفته من عينيه فأمسكت بتلابيبه وقلت ثائرا أنت يا شيخ... ثم صحت: أدخل. أيقظتني فزعا طرقات إبراهيم على الباب.(الرواية، ص 265/264).

---

* كاتب من مصر

1- واحة الغروب، بهاء طاهر، روايات الهلال، القاهرة، تشرين الأول/ نوفمبر ،2006

2- سامي خشبة، مصطلحات فكرية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1994، ص ،374

ربما نلتقي بزمان جميل

حميد سعيد*

رمدٌ ورمادْ
رمدٌ ورمادْ
رمدٌ ..
ورمادْ..
هو حالُ البلادْ
رمدٌ ليلُها ورمادْ
ونهاراتها .. رمدٌ ورمادْ

***

البساتينُ والطرقاتُ ..
واجهاتُ البنايات والشرفاتُ ..
الأناشيدُ..
ما كتب الشعراءُ من غزلٍ ..
في حدادْ
رمدٌ ورمادْ
النجومُ رماديةٌ
وخيوطُ الضياء التي تتدلى النجوم منها ..
رماديةٌ
دارةُ شمسِ الصباحِ .. رماديةٌ
والظلالُ رماديةٌ
والخيولُ رماديةٌ
والصهيلُ رمادْ
رمدٌ..
ورمادْ..
هو حال البلادْ

***

مُدُنٌ في السخامْ
مُدُنٌ من سخامْ

لُغةٌ تتشكّلُ في مهرجانِ الغرائزِ
أنّ الاباطرة الجاهليين .. يغتصبون الكلام
والمرازبةَ الدمويينَ..
يرتجلون في كل يومٍ ..
أماماً..
ويختلفون عليهْ

***

مُدُنٌ في السَخامْ
مُدُنٌ من سَخامْ
البيوتُ التي من سَخامْ
الوجوهُ التي من سَخامْ
البلادُ التي في السخام
السخامْ
يخرجُ مؤتزراً ببقايا من
الوهمِ ..
بالدم ..
منتعلاً سِفْلَةً بعناوين
خرقاءْ
فقهاءْ
عبيد أرقاء
يقودُ المرازبةَ الدمويينَ
والساقطينَ .. الأباطرة الجاهليينَ
الى موعدٍ .. تتعثّرُ فيه المروءةُ
في موكبٍ .. يَتعفّنُ فيه الكلامْ
السخامْ..

يغزو القراءات ...
يغزو الأساطيرَ..
يغزو البكاءَ..
والضوءَ..
هَلْ أخطأ الشجرُ الأرملُ .. كلَّ مواعيدِهِ...
أبلهْ..

اختار موسمهُ .. في غياب المحبِّين
ثم مضى في عباءةِ أوهامِهِ السودِ ..
مقتفياً أثرَ المقبرَهْ
بَليدٌ هو الشجرُ الأرمَلُ
وغدٌ هو الشجرُ الأرمَلُ
نذلٌ هو الشجرُ الأرمَلُ
مُرُّ الثمارْ

***

أبلهْ..
صانع التوابيت هذه البلادْ
لا يحقُّ للميت .. اختيار تابوتهِ
ولاوقت للموتِ في اختيار الذين يموتون !
لمن يَصنعُ التوابيت ؟!
أبلهْ..
هو الشاعرُ في مدن يقتل الناسُ فيها ..
بجريرة أسمائهِم..
فلمن يُكتبُ الشعرُ؟!
لا وقت عندي لتغيير اسمي ..
ولا القلب يُسعفني ..
لأخاطب اصحابي الشعراء .. بأسماء
أخرى!
هل اسمّي سعدي بن يوسف .. أو أُسمّي
ساميّ بن مهدي ..
بغير اسميهما ؟!
هل أتبرأ من وردة المستحيل ..
وأستبدلُ الذي هو أدنى .. باسئلة ..
ستظل معي .. وترافقني في الطريق أليها
ذاتَ عامْ
رُبَّما نلتقي على غير ما موعدٍ ..
بزمانٍ جَميلْ
نتوَحَّدُ في وردةِ المستحيلْ

---

* شاعر من العراق

شاهد نفي

أرجوكم كذبوا «باتاي»!

خيري منصور *

■ لنأخذ عينات من افراز العقل السياسي العربي هذه الأيام ونضعها تحت المجهر، فهذا أجدى من التعليق المباشر على ما يحدث سواء كان اعدام دولة أو مواطن أو رئيس.

قرية مصرية تعلن تغيير اسمها عشية اعدام صدام حسين بحيث تصبح قرية صدام، اعترافا كما يقول الناطقون باسمها بفضله على أهل القرية الذين عملوا في العراق وشيدوا منازل القرية الجديدة من ذلك العمل.

ثري عربي يعلن عن استعداده لدفع أي ثمن يطلبه العراق مقابل الحصول على الحبل الذي شنق به صدام حسين!

بيوت غراء تزين جدرانها صور لصدام في فلسطين والأردن، وولائم مفتوحة في عواصم عربية ابتهاجا باعدامه.

مظاهرات عراقية تدق الطبول فرحا بشنق صدام ومظاهرات أخرى يقول المشاركون فيها انهم يفتدون صدام بدمهم!

زعيم عربي يعلن الحداد في بلاده على اعدام صدام، وزعيم آخر يقول بأنه نال جزاءه.

عبارة واحدة تكررت ثلاث مرات بالانكليزية والفارسية والعبرية.

وكان الرئيس الأمريكي بوش هو البادئ عندما قال ان العراق بعد اعدام صدام سيدخل الى مرحلة جديدة من الاستقرار.

ثم قال أولمرت رئيس وزراء اسرائيل وخليفة شارون في زعامة حزب كاديما: ان اعدام صدام هو عقاب عادل.

وفي خطبة الجمعة في طهران قال هاشمي رافسنجاني أن اعدام صدام عقاب عادل وسيدخل العراق الى مرحلة من الاستقرار والسلم الأهلي!

رئيسة وزراء بريطانيا السابقة التي تلقت دروسا مبكرة ضد عقوبة الاعدام في بلادها منذ لعب آرثر كوستلر دورا في التشكيك بجدوى هذه العقوبة رحبت باعدام صدام، لأنه ليس بريطانيا، وينتسب الى خارج النطاق الانكلو ساكسوني النقي.

لوبان الفرنسي، العنصري ضد المهاجرين العرب الى فرنسا، وصف الاعدام بأنه جريمة رخيصة، وقذرة.

منظمة العفو الدولية أدانت الاعدام ودول اسلامية استنكرت التوقيت في فجر عيد الأضحى!

هذه البانوراما ليس الهدف منها تقديم جردة بالمواقف من اعدام صدام حسين، لكنها ضرورية كقرائن على الأقل لما سنقوله!

وهو بدءا، هل كان «باتاي» مصيبا بما كتبه عن العقل العربي باعتباره قاصرا وينتمي الى ما قبل المنطق؟

وهل كان طومسون مصيبا عندما وصف هذا العقل بأنه أشبه بثمرة الصبير التي حين تنقب من بذورها لا يبقى غير المخاط.

وهل كان هيغل على حق عندما قال في كتابه محاضرات عن تاريخ الفلسفة ان التاريخ الاسلامي مجرد معرض للتغيرات الدائمة، وهل كان محقا عندما سخر من الفارابي وفلاسفة الاسلام لأن عقولهم تعاني من عسر الهضم، وذلك تعليقا على ما قرأه عن الفارابي الذي أعاد قراءة كتاب تاريخ الطبيعة لأرسطو أربعين مرة كي يستوعبه!

وهل كان روزنتال عادلا عندما قال ان كلمة الحرية لا وجود لها في اللغة العربية وأنها ليست ذات جذور اشتقاقية؟

وهل اهتدى ت دوتي الى الحقيقة عندما قال نقلا عن شيخ عربي ان هذه الأمة لا تحتاج الى العلم وأن الشهادة وحدها تكفي؟

سأكتفي بهذا القدر من آراء غربية تشكك في العقل العربي، وتضع العربي مرادفا للخيانة والغدر والأنانية والبداوة والكذب، وهذه كلها نعوت كان باتاي قد حشدها في كتابه الشهير عن العقل العربي.

وأعترف بأنني شخصيا كنت أحد هؤلاء الذين كرسوا أعواما من أعمارهم لدحض هذه المقولات والبرهنة على عنصريتها، وبالتالي اندحارها أمام الحقائق والمناهج العلمية، لكنني أتذكرها الآن لسببين، أولهما أن ما يصدر عن العقل السياسي العربي هذه الأيام يصلح أطروحات مضادة لدفاعاتنا.

بل هو باختصار انتحار عقلي.

في ذلك الفجر، وحين كانت المساجد في معظم العواصم الاسلامية والعربية تكبر لصلاة الأضحى فيما كان الشفق يشي بصباح دافئ في عز الشتاء، انصرفت عن مشاهدة التليفزيون الى عدد من كتب التاريخ التي أنقلها معي حيثما حللت، وأدركت على الفور أن نصف ساعة فقط من حياة العرب السياسية تكفي اللبيب والحصيف من القراء، ولا حاجة بهم لقراءة نقائض الأمويين وأسباب سقوط العباسيين وخروج أبي عبدالله الصغير من غرناطة. عينة واحدة من الدم الفاسد تكفي وبيضة فاسدة واحدة من سلة فيكتور هوغو ايضا تكفي.

فالبداوة في أقصى تجلياتها تتبدى تحت طلاء الحداثة وما بعدها، والدولة تغيب، بل تدول لأنها سيئة الحظ في لغتنا العربية لاقترانها بالزوال!

ليس مهما من تقبل من في هذه الدراما التنكرية. الأدوار يجري تبادلها أحيانا على نحو كوميدي وأحيانا يضع الفاصل بين الجلاد والضحية فلا تدري أي سيف قد أسال الدم!

وان كانت التداعيات الأولى التي اندلعت في ذاكرتي هي حول هذا العقل وما قيل عنه فان ما أعقبها على الفور هو التالي:

مئات بل آلاف قصائد المديح التي كتبت عن صدام حسين من الماء الى الماء، ومن أشد أشكال العمود الشعري صرامة الى قصيدة النثر أين ذهب هؤلاء في ذلك الشفق؟

أما من مرثية واحدة ولو على استحياء أيها الشاعر المهاجر الى أوروبا، والذي كان يحمل حقيبة سيده البعثي، ويكتب عن وزير اعلام صدام بأنه أفضل وزير في الكرة الأرضية!

أين من جعل من صدام حسينا في كربلاء مضادة مدفوعة الأجرة عندما كان الجنرال في ربيعه؟

وأين هم الآن كتاب ما يسمى الصفحة الثالثة في صحيفتي الثورة والجمهورية العراقيتين خلال الحرب العراقية الايرانية؟

من لندن الى السويد مرورا بهولندا وليس انتهاء باستراليا ونيوزيلندة ونيويورك وباريس وأمستردام وواق الواق.

شعراء وروائيون ونقاد صنعوا تمثال التمر وعبدوه ثم أكلوه، وأخيرا صفقوا لشنقه!

ما دامت هذه هي لحظة الحساب والعقاب فتعالوا نفتح ملفات ثقافية واعلامية أراد أبطالها أن يلعبوا دور الحطيئة وطرفة بن العبد معا ودور المنفى والملكوت، ودور السجان والسجين.

رجال ونساء لكل الأزمنة، ما دامت الأصابع مرة الى الحد الذي تكتب فيه الشيء ونقيضه.

من صنع التمثال، ومن عجن التمر وحوله الى وثن؟

هل هم الناس العاديون الذين لا حول لهم ولا قوة أم من ترجلوا من الباص رقم 4 الذي يصل باب المعظم بساحة الأندلس ومبنى اتحاد الكتاب العراقيين في بغداد ليركبوا الماليبو والموسكوفيتش والسوبر صالون والمتسوبيشي والتي غالبا ما كانوا يخطئون باسمها ويقولون «مسيوبوشي»؟

أين هي التقارير التي كتبها هؤلاء الأحرار عن أمثالي في بغداد، وأنا على سبيل المثال لم أكتب اسم صدام حسين طوال اقامتي في بغداد، ومن يملك وثيقة مضادة فأنا بانتظارها بفارغ الصبر، كي أطمئن على سلامة ذاكرتي!

من هم الذين وصفوا صدام بسيف الدولة ووصفوا أنفسهم بالمتنبي ومن اين يتقاضون الآن أجورهم تلبية لموعظة الجد العظيم الذي قال لأحفاده من الشعراء المتكسبين: أوصيكم بالمسألة، ثم قال ان قصائده هن بناته العذارى ينكحهن من يشاء؟!

أحدهم، دخل الى مكتبي في مجلة الأقلام وهو شاعر ما بعد حداثي يسألني عن أهم شخصية رياضية وأهم حدث رياضي عام 1986.

قلت له لا أعرف ولا أتابع الرياضة فقال لي، هل من المعقول أنك لا تعرف بأن الأستاذ عدي هو شخصية العام وأن انتصار بغداد على دمشق في احدى المباريات هو أهم حدث.

عندئذ وجدتني أسأله بسخرية عن كوتسيلوس أكسيلوس، وظن أنني أنحت اسما وحقيقة الأمر أنني كنت في تلك الليلة أقرأ حوارا مع هذا اليوناني!

من صنع الامبراطور غير ذلك الصحافي الذي ارتمى تحت قدميه خمس عشرة ساعة في القطار القادم من البصرة الى بغداد كي يتوصل بعد الحوار الى أنه أهم من لينين ومن الأيوبي؟

وأية حرية يعدنا بها ذلك الشاعر الماركسي الذي احتفظ له بقصيدة عن صدام، كتب لها مقدمة مما قاله ماياكوفسكي عن لينين؟

ان كانت لحظة الحساب قد أزفت فليجب حملة حقائب لؤي حقي في مهرجان الأمة عن دورهم في تضليل الوجدان الشعبي، واللعب بالكلمات للحصول على ألف دينار أو دولار أو درهم، لا فرق؟

لقد حول شعراء التروب دور السياسي الديكتاتور الى دجاجة تبيض ذهبا وهم الآن محرومون من هذا البيض، لقد كان بقاؤه ضروريا لاستمرار نمط الانتاج لكنهم لا يدركون الآن، وبعد أن أصبح بلدهم يدفن أكثر من مائة انسان يوميا بأن اللعبة قد انتهت للمرة الثانية اذا كان ما قاله الدوري ممثل العراق في الأمم المتحدة لحظة السقوط هو المرة الأولى!

نعم، ان كانت لحظة الحساب قد أزفت فلتفتح الملفات كلها، ملفات تجار النفط وتجار الأدب الذين سماهم الراحل علي الوردي وعاظ السلاطين!

ومن يراهنون على أن هذه الذاكرة القومية قد أصيبت بالزهايمر السياسي يخطئون مرتين، مرة لأنهم كذبوا على أنفسهم ولفقوا سير ذاتية مستعارة، ومرة لأنهم كذبوا على الآخرين!

كم شاعرا وكم روائيا وكم صحافيا كانوا سيصبحون باعة متجولين أو موظفين صغارا لولا تسربهم الى جريدة القادسية واجراء التدريبات الأولى على مديح الديكتاتور؟

البعض منهم كانت حجته الخوف والنجاة بجلده، فماذا فعل بعد تلك النجاة؟

لقد انتهت تلك التراجيكوميديا العربية بأن أصبحنا بفلسطين ثانية، وعلينا أن ننتظر بلوغ متوالية الانتحار نهاياتها بحيث تصبح مساحة فلسطين بالفعل هي مساحة الوطن العربي الذي تحول الى منفى بامتياز. هذا اذن أول الدم وقد يكون آخر الغيث لعل التراجيديا ضجرت من الاقامة ألف عام في ذاكرة مُلتاعة، ولعل التاريخ الذي أعلنوا نعيه قبل عقدين من الزمن يتعجل القيامة!

---

* شاعر وكاتب من الاردن